جوانب من الحياة العلمية للأمراء في دولة المماليك من خلال كتاب المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي الأتابكي

د. بالأعرج عبد الرحمن
قسم التاريخ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

ملخص

يعالج المقال مسألة هامة في التاريخ الثقافي المملوكي، وهي شهرة رجال الدولة من السلاطين والأمراء بطلب العلم وتحصيله والتأليف فيه والتدريس أيضا، حيث غلب على كتابات الباحثين والمؤرخين بأن عصر المماليك هو عهد دولة عسكرية بحتة، لكن المتأمل في سيرة أمرائها يلاحظ أنهم أولوا العناية البالغة بالحياة العلمية والثقافية، ونستشف ذلك من خلال تراجمهم من كتاب لأحد مؤرخيهم وابن أحد الأمراء المماليك ألا وهو أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ومؤلفه في التراجم المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي.

الكلمات المفتاحية المماليك، الحياة العلمية، الأمراء، المنهل الصافي، التراجم.

Résumé :

L'article traite d'une question importante dans l'histoire culturelle de l'état mamelouk, un célèbre Etat des sultans et des princes de rechercher des connaissances, où il a dominé les écrits des savants et des historiens que l'ère mamelouke est l'ère de l'état purement militaire, mais le méditant dans la biographie des princes note qu'ils prennent d'abord la vie adulte de soins scientifique, culturel, et de discerner à travers les biographies du livre Al-manhal a-safi, par Abu Yousef ibn Taghri Bardi Al-atabiki .

Mots clés:

Mamelouks, la vie culturelle, princes, Al- manhal a-safi, biographies.

تقديم

قامت دولة المماليك في مصر والشام وتوسعت إلى الحجاز، وامتد نفوذها السياسي أحيانا إلى بقية البلدان الإسلامية بالمغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، واللافت للانتباه أن مؤسسي هذه الدولة لم يكونوا من العرب أو من البربر، بل كانوا رقيقا من البلاد التي فتحها المسلمون في أواسط آسيا أو بلاد ما وراء النهر، وروسيا والقوقاز والبلقان، وأوروبا الشرقية، ورغم ذلك لم يمنعهم أصلهم العرقي من تعلم اللغة العربية والتفقه في الدين الإسلامي الذي كرسوا أنفسهم للدفاع عن رقعته الجغرافية ضد المغول والتتار والصليبيين، وقد برز الكثير من السلاطين والأمراء المماليك ممن بلغوا درجة معتبرة من العلم مقارنة بمن عاصروهم من العرب والبربر،

والمقال الذي بين أيدينا يستعرض جانبا من جوانب هذه الظاهرة ألا وهي نبوغ بعض الأمراء المماليك في العلوم النقلية والعقلية من خلال كتاب المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لأحد المماليك وهو المؤرخ يوسف بن تغري بردي الأتابكي، فبعد قراءة أجزائه التي هي عبارة عن تراجم لأكثر من 3000 شخصية إسلامية وغير إسلامية، من الملوك والأمراء والعلماء المشارقة والمغاربة وحتى من أوروبا، تبين ورد الكثير من التراجم للأمراء المماليك ممن اختار العلم بدل السياسة أو أنه كان فعلا من القادة العسكريين لكن غلب عليه الاهتمام بالعلم وأهله، وهناك من تخصص في فرع معين من العلوم وهناك من كان موسوعيا، وتركوا مؤلفات تعتبر دليلا قاطعا على قيمة التكوين العلمي الذي كان يتلقاه المماليك منذ وصولهم إلى مصر إلى أن يتم تكليفهم بمهامهم في القصر أو الجيش، وبلغ عدد الأمراء الذين يمكن وصفهم بالعلماء 33 أميرا أوردهم الكاتب الذي هو بدوره أحدهم فضلا عن والده.

ترجمة أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي[1]:

والده هو الأمير تغري بردي (معناها الله أعطاه) من أصل رومي جلب إلى مصر واشتراه الملك الظاهر برقوق الجركسي، ثم أعتقه بعد إتمام تكوينه العسكري والديني وترقى في المسؤوليات حتى صار مقدما سنة 794 هـ، ثم تولى نيابة حلب بعد سنتين من ذلك، ثم نيابة الشام سنة 803 هـ في عهد الظاهر فرج بن برقوق، ومن خلال هذا يظهر أن هذا الأمير قد شارك في الأحداث السياسية والتقلبات التي تزامنت مع قيام الدولة المملوكية الثانية وهي المسماة بالجركسية، وكان كما وصفه معاصروه والمؤرخون الذين كتبوا عن تاريخ المماليك بأنه كان ساكنا وكثير الحياء ومحبا للإسلام والعلم، وقد تزوج الملك فرج بابنته فاطمة .

أما المؤرخ أبي المحاسن يوسف ابنه فقد كان له أن يعيش حياة طيبة مع والده، كما عاش في بيت علم ودين منذ نعومة أظفاره، وتأثر في علم التاريخ بالشيخين الجليلين بدر الدين العيني وأحمد بن علي المقريزي وهما من أبرز مؤرخي الزمان، فصار بدوره من أعلام التاريخ في العصر المماليكي.

وكان قريبا من السلطان ومناطق صناعة القرار في الدولة المملوكية الثانية خاصة في عصر السلاطين برسباي وجقمق وخشقدم، وساهم ذلك في اطلاعه على المسببات الحقيقية للأحداث التاريخية، واتصاله بالكثير من الشخصيات المصرية والمغربية والأوروبية وغيرها ممن كانوا يحلون بالقاهرة خلال القرن التاسع الهجري/15م.

وترك ابن تغري بردي مجموعة من المؤلفات التاريخية التي أغنت المكتبة العربية أهمها كتاب المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي في التراجم، وكتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وحوادث الدهور في مدى الأيام والشهور.

اهتمام المماليك بالحياة العلمية والثقافية بمصر:

ساهم المماليك الذين كانوا من أصول غير عربيّة في الحركة العلمية والثقافية بمصر والشام، حيث كانوا ينفقون بسخاء على العلماء والطّلبة، وكانوا يحبّسون الأوقاف المغلّة على المؤسّسات التعليميّة، وشارك السلاطين والأمراء في الحياة العلميّة مشاركة فعّالة، فاشتهر عن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ميله إلى التاريخ و أهله، وكان يقول أنّ سماع التاريخ أعظم من التجارب[2].

وكان السلطان المؤيّد شيخ المحمودي (815-824هـ/1412-1421م) يحمل إجازة برواية صحيح البخاري من حافظ عصره الشيخ سراج الدين البلقيني، وكان يصحبها معه في سفره وكان يفتخر بها[3].

وكان السلطان الأشرف أبو نصر قايتباي الجر كسي (824-841 هـ/1421-1438م)، الحادي والأربعون من سلاطين المماليك ذا ميل إلى مطالعة كتب العلم والرقائق والسير، وكان له اعتقاد في الصالحين من العلماء، فأثر ذلك في منشآته الثقافية والعلميّة، وكان عصره من أزهى العصور بمصر من حيث النشاط الثقافي والعمراني[4].

وحرص السلطان الغوري على عقد المجالس العلميّة والدينيّة بالقلعة عدّة مرّات في الأسبوع، وكان يبحث فيها مع العلماء مختلف المسائل العلميّة ويناقشها، وكثيرًا ما كان السلطان نفسه هو الموجه للمناقشة، فتبُدأ كلّ مسالة بعبارة "قال حضرة مولانا السلطان" ثمّ يجيب العلماء على سؤاله[5].

واشتغل بعض الأمراء المماليك بالعلوم على مختلف أصنافها، وتصدى بعضهم للتدريس والإقراء، ومنهم الأمير الكبير علم الدّين سنجر بن عبد الله البرنلي التركي الصالحي النجمي (ت:699 هـ/1300م)، الّذي كان مشاركًا في الفقه والحديث، وكان الفضلاء يحضرون مجلسه فيذاكرهم ويكرمهم، وسمع الحديث بالحرمين والقدس ومدن الشام ومصر، وخرّج لنفسه معجما في أربعة عشر جزءًا[6].

وكان أحد الأمراء من مقدّمي الألوف وهو سودون بن عبد الله (ت 830 هـ/1427م) أحد مماليك الظاهر برقوق يعرف بالفقيه و كان حنفي المذهب[7].

وكان الأمير تغري برمش سيف الدين الجلالي الناصري ثم المؤيدي الحنفي (ت:852 هـ/1449م) الّذي تولى نيابة القلعة بالقاهرة معتنيا بعلم الحديث، وطلبه على الحافظ ابن حجر العسقلاني، وكان مشاركًا في كثير من العلوم والآداب[8]، وكان الأمير تغري بردي بن أبي بكر الناصري الحنفي (ت 895 هـ/1492م) يقرئ صغار المبتدئين[9].

كما اشتهر من أبناء المماليك من ذاع صيتهم في العلوم النقلية والعقلية، وفيما يلي عرض لأشهر هؤلاء الأمراء، في شكل تراجم مختصرة للتعريف بهم من خلال كتاب المنهل الصافي .

1- الأمير سيف الدين أرغون شاه بن عبد الله الدوادار الناصري (ت: 731هـ)[10]:

أصله من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، اشتراه ورباه وأدبه وتبناه، وأمره بملازمة الاشتغال، فاشتغل ودأب، وكتب الخط المنسوب، وسمع صحيح البخاري بقراءة الشيخ أثير الدين أبي حيان وكتب بخطه صحيح البخاري، وبرع في الفقه وأصوله، وأذن له بالإفتاء والتدريس.

قال الشيخ صلاح الدين: قال لي الشيخ فتح الدين بن سيد الناس: كان يغرف مذهب أبي حنيفة ﷺ ودقائقه، ويقصر فهمه في الحساب إلى الغاية.

قلت ورقاه أستاذه الملك الناصر إلى أن جعله دوادارا بعد الأمير بيبرس، ثم ولاه نيابة السلطنة بديار مصر نحو ست عشرة سنة، ثم ولي نيابة حلب عوضا عن الأمير الطنبغا الصالحي، فباشر النيابة أربع سنين، وهو الذي أمر بحفر نهر الساجور وإجرائه، وكان وصول النهر إلى حلب في سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وكان يوم وصوله يوما مشهودا.

وكان تركيا صحيحا مليح الشكل، محبا لأهل العلم، معظما لهم، ويجلهم ويتقاضى حوائجهم، ويجتمع بهم، ويذاكرهم، وكان له مشاركة جيدة في عدة علوم، وله ميل إلى فعل الخير، وفيه بر الفقراء، وبالجملة فهو أنبل مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعظمهم، وكان يحكم بالشرع، وعمر تربة بحلب مشهورة به، ووقف عليها وقفا جيدا، وتردد إلى مكة مرات، منها في سنة ست عشر، وفي سنة عشرين، وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة، وسمع بمكة أيضا على الرضا الطبري، وابتنى بمكة مدرسة للحنفية بدار العجلة ووقف عليها وقفا هو الآن مضاف إلى قاضي القضاة الحنفية بالقاهرة، وجعل مدرسها يوسف بن الحسن الحنفي المكي، ودرس بها مدة سنين إلى أن استولى عليها الأشراف أولاد درابح بن أبي نمي، وهي الآن بأيديهم، ولم يكن إذ ذاك بمكة من القضاة الأربع غير قاضي شافعي فقط، وولاية قضاة الحنفية بمكة كان بعد

الثمانمائة، ثم ولي بعد ذلك بمدة قاضي مالكي، ثم حنبلي وهو الشريف عبد اللطيف سراج الدين المكي الفاسي.

2- **الأمير سيف الدين أسنباي الزردكاش بن عبد الله الظاهري (ت: 852هـ/1448م)[11]:**

من أعيان المماليك الظاهرية برقوق، كان زردكاشا تركي الجنس، وعنده فصاحة ومعرفة وعقل، حافظا لما رأى من الحوادث، وكان بينه وبين ابن تغري بردي صحبة ، وهو أحد من أخذ عنه تراجم من لم يدركه من الأمراء الظاهرية، واجتمع مرة عنده مع الشيخ تقي الدين المقريزي، فلما اجتمعا أخذا في ذكر ما جرى من الحوادث في الدولة الظاهرية برقوق إلى دولة الأشرف برسباي، فسكت المقريزي، وتكلم أسنباي على الإنصاف إلى أن انصرفا وتفرقا، يقول ابن تغري بردي: ثم بعد ذلك سألت عنه من الشيخ تقي الدين فقال: ما رأيت من يحفظ الحوادث والوقائع برمتها مثل هذا.

3- **الأمير سيف الدين إشقتمر بن عبد الله المارديني الناصري (ت: ت791هـ/1389م)[12]:**

أحد أعيان الأمراء الأكابر في عدة دول، أصله من مماليك صاحب ماردين، وبعث به إلى الملك الناصر حسن فرباه وأدبه وكان يعرف ضرب العود ويحسن قول الموسيقى ويعرف عدة فنون، عمر عدة أملاك بحلب وعمر عند باب نيرب مدرسة وقرر فيها طلبة ومقرئين.

4- **الأمير شرف الدين إقبال بن عبد الله المستنصري الشرابي العباسي (ت:635هـ/1255م)[13]:**

صاحب رباط الشرابي بمكة، عمره ووقف عليه كتبا في فنون العلم وقرر به صوفية.

5- **الأمير علاء الدين بن عبد الله آقبغا اليلبغاوي الجوهري (ت: 792 هـ/1390م)[14]:**

كان من مقدمي الألوف وانتقل إلى عدة نيابات بالشام، كان مغرما بالكتب النفيسة.

6- **الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله الدواداري المنصوري الأفرم (ت:720 هـ أو 726 هـ/ 1320- 1326م)[15]:**

نائب الشام، كان عنده ظروف وأدب وكان ينادم الشيخ صدر الدين بن الوكيل والشيخ بدر الدين بن العطار، والملك الكامل، وكان محبا لأهل العلم ومجالسهم، وحسن المحاضرة، محبا للأدب ومدحه جماعة من شعراء عصره بالقصائد وكان يجيز عليها بالجوائز السنية، له آثار حسنة.

7- **الأمير الكبير جمال الدين آقوش بن عبد الله النجي الصالحي (ت: 677هـ/1278م)[16]:**

أحد المماليك الصالحية، وتنقل في الوظائف إلى أن جعله أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب استادارا أي قابض مال السلطان وصرفه. وصار يعتمد عليه في غالب أحواله ومهماته، إلى أن توفي الملك الصالح، وآل الأمر بعد مدة طويلة إلى الملك الظاهر بيبرس استقربه أيضا استادارا

في أوائل أمره، ثم جعله نائب دمشق تسع سنين، ثم عهزه عن نيابة دمشق برغبته عنها وتقصر بطالا سبع سنين قبل موته، وحرمته في الدولة قائمة، ومكانته عالية، ولما مرض عاده الملك الظاهر بيبرس، ومات بعد أيام في خامس ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وستمائة بداره بدرب ملوخيا. وكان ابتنى لنفسه تربة بالمدرسة النجيبية وبدمشق، وفتح لها شبابيك إلى الطريق، فلم يقدر دفنه فيها ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة الصغرى بالقاهرة.

وكان كثير الصدقات والبر، محبا للفقراء والعلماء، حسن الاعتقاد متغاليا في السنة وحب الصحابة، وعنده تحامل كبير على الشيعة.

وبنى مدرسة بدمشق إلى جانب مدرسة نور الدين الشهيد، وبنى له بها تربة ولم يدفن فيها، ووقف على مدرسته وخانقاته وجعل النظر للقاضي شمس الدين بن خلكان. وله أوقاف على الحرمين.

8- **الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله الشبلي (ت: 739هـ/1338م)[17]:**

سمع من ابن عبد الدايم كتاب الترغيب للأصبهاني ومشيخته وغير ذلك وحدّث.

9- **الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله البيسري (ت: 699 هـ/1299م)[18]:**

كان من جملة أجناد طرابلس، وله شعر جيد وفضيلة.

10- **الأمير علاء الدين الطنبغا بن عبد الله الجاولي الأديب (ت: 744هـ/1343م)[19]:**

أصله من مماليك بن باخل، وخدم الأمير علم الدين سنجر الجاولي، وبه عرف لما كان نائبا بغزة.

كان ينظم الشعر والقصائد المطولة والمقطعات، وعلى معرفة بفقه الشافعي والأصول والبحث الجيد ومال إلى رأي الشيخ ابن تيمية لما اجتمع به ثم تراجع عن ذلك إلا بقايا.

11- **الأمير سيف الدين آل ملك بن عبد الله المعروف بحاج آل ملك نائب السلطنة بديار مصر (ت: 747هـ/1346م)[20]:**

كان من أكابر الأمراء ومن مشايخ المشورة. كان يحب طلبة العلم ويجالسهم. وخرج له شهاب الدين أحمد بن أيبك الدمياطي مشيخة وحدّث بها.

12- **الأمير فخر الدين أياز بن عبد الله الصالحي النجمي المعروف بالمقرئ (ت: 687 هـ/1288م)[21]:**

كان أحد أكابر الأمراء بالديار المصرية، ولاه الملك الظاهر بيبرس الحجوبية، وكان يعتمد عليه في أموره ومهماته ولما تسلطن الملك المنصور قلاوون زاد في تعظيمه.

ذكره البرزالي في معجمه وقال: وكان لديه فضيلة ويكتب كتابة حسنة، ويترسل إلى الملوك لما فيه من النباهة وحسن الإيراد، وكان فصيح العبارة لسنا خبيرا كافيا عارفا بأمور الدولة

وما يتعلق بالمملكة، قد تدرب في ذلك، وترسل في الأيام الظاهرية إلى صاحب اليمن وإلى ملوك التتار وملوك الفرنج. وكان يعظم أهل العلم والحديث ويعرف حقهم ومكانتهم.

13- **الأمير عز الدين آي بك بن عبد الله المحيوي (ت: 668هـ)[22]:**

كان بارعا حسن الخط وكان يكتب ويحفظ مقامات الحريري، ومختار الحماسة، ومختار شعر أبي تمام وأبي الطيب وكان يعرف الإسطرلابات.

14- **الأمير سيف الدين أيتش بن عبد الله الأسندمري البجّاسي الجرجاوي أتابك العساكر بالديار المصرية وعظيم الدولة الظاهرية (ت: 802 هـ/1399م)[23]:**

كان يحب الفقراء وأهل الصلاح ويعظم أهل العلم إلى الغاية، وعمر مدرسته بباب الوزير المعروفة به ووقف عليها وقفا جيدا.

15- **الأمير علاء الدين أيدكين عبد الله الشهابي نائب حلب (ت: 677 هـ/1275م)[24]:**

كان من خيار الأمراء عزما وحزما وخيرا ودينا. وكان له محبة في أهل الدين والصلاح والخير وله فيهم حسن ظن، وهو صاحب الخانقاه داخل باب الفرج بدمشق ووقف عليها أوقافا جيدة.

16- **الأمير أيدمر بن عبد الله المحيوي فخر الترك الأديب الشاعر عز الدين عتيق محي الدين أبي المظفر محمد بن محمد بن سعد الأديب الشاعر بن ندى وهو خجداش أيبك المحيوي صاحب الخط المنسوب (ت: ؟)[25]:**

قال ابن سعيد المغربي في كتاب المشرق في أخبار المشرق، قال: بأي لفظ أصفه ولو حشدت جيوش البلاغة لفضله لم أكن أنصفه.

17- **الأمير سيف الدين أينال بن عبد الله الأبوبكري الأشرفي الفقيه أحد أمراء الألوف بديار مصر (ت: 853 هـ/1449م)[26]:**

من مماليك الأشرف برسباي، كان أميرا عاقلا، ساكنا، دينا، فقيها عالما فاضلا مفتيا حافظا للفقه وفروعه وله مشاركة في العربية وغيرها.

18- **الأمير سيف الدين برلار بن عبد الله العمري الناصري نائب دمشق (ت: 791 هـ/1388م)[27]:**

أصله من مماليك الناصر حسن، رباه مع أولاده وتأدب ومهر وكتب الخط المنسوب. كان أميرا شجاعا فاضلا عارفا سيوسا مدبرا فقيها له مشاركة جيدة في فروع المذهب وفي النحو ويذاكر بالأدب والتواريخ وكان عالما بالفلكيات والنجوم.

19- **الأمير بدر الدين بكتوت بن عبد الله المحمدي (ت: بعد 700 هـ)[28]:**

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في تاريخه: أخبرني الشيخ أثير الدين أبو حيان من لفظه قال: كان المذكور قد اشتغل عليّ بيسير من النحو، وله شعر.

20- **الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الخطائي الدوادار (ت: 725 هـ/1324م)[29]:**

أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، اشتراه ورباه مع أولاده، ثم ترقى من بعده إلى أن ولي الدوادارية ثم صار رأس الميسرة وكبير الدولة، ثم ولي نيابة السلطنة بالديار المصرية إلى أن قبض عليه وحبسه مدة، ثم أطلقه وأعيد إلى رتبته.

وكان عاقلا فاضلا، بارعا، عارفا، سيوسا، ذا مشاركة وفضل، وصنف تاريخا كبيرا أجاد فيه وأبدع، ويقال إنه صنفه بإعانة كاتبه ابن كبر النصراني وغيره، وسمى تاريخة: بزبدة الفكرة في تاريخ الهجرة في إحدى عشر مجلدا.

ومما يدل على فضله ما أورده في تاريخه من الكلام المسجع، وانتهى تاريخه إلى سنة أربع وعشرين وسبعمائة.

وكانت وفاته بالقاهرة في ليلة الخميس خامس عشرين شهر رمضان سنة خمس وعشرين وسبعمائة وهو من أبناء الثمانين.

وكان فاضلا وافر الحرمة مهابا وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون يجله ويقوم له لما يدخل عليه ويأذن له في الجلوس.

قال عنه ابن تغري بردي: كان يستحق هذا وأكثر لما احتوى عليه من العلم والفضل والعقل والكرم والسياسة فهؤلاء كانوا هم الأمراء لا مثل أمراء عصرنا هذه البقر العاجزة.

21- **الأمير بدر الدين بيليك بن عبد الله الظاهري الخازندار نائب السلطنة بالديار المصرية ومقدم الجيوش بها (ت: 676 هـ/1374م)[30]:**

كان أميرا جليل المقدار عالي الهمة واسع الصدر كثير البر والمعروف والصدقة لين الكلمة، حسن المعاملة والنظر للفقراء، يتفقد أرباب البيوت، وعنده ديانة وفهم وإدراك وذكاء ويقظة. سمع الحديث وطالع التواريخ، وكان يكتب خطا حسنا، وله وقف بالجامع الأزهر على زاوية لمن يشتغل بمذهب الشافعي، وبها درّس وله أوقاف أخر على جهات البر.

22- **الأمير الفقيه الحنفي المحدث سيف الدين أبو محمد تغري برمش بن عبد الله الجلالي المؤيدي نائب القلعة بالديار المصرية (ت: 852 هـ/1448م)[31]:**

أصله من بلاد الروم وكان أبوه مسلما.

وكان له فضل ومعرفة بالحديث لا سيما في أسماء الرجال، فإنه كان بارعا في ذلك، وكان له مشاركة لطيفة في الفقه والتاريخ والأدب.

كان محبا لطلبة العلم، وكان فصيحا باللغتين العربية والتركية وله إلمام بكتابة الخط المنسوب.

وكان أحسن علومه الحديث، وفيه كان غاية في الاجتهاد. وسمع الكثير. قرأ صحيح البخاري على قاضي القضاة محب الدين أحمد بن نصر الله الحنبلي البغدادي قاضي قضاة الديار المصرية، وقرأ صحيح مسلم على الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد الزركشي، وقرأ السنن الصغرى للنسائي على الشيخ شهاب الدين أحمد الكلوتاتي. وقرأ السنن لابن ماجة على الشيخ شمس الدين محمد المصري، وقرأ بعض الدارمي على القاضي ناصر الدين محمد بن حسن الفاقوسي، وقرأ على قاضي القضاة شيخ الإسلام حافظ العصر شهاب الدين أحمد علي بن حجر السنن لأبي داود السجستاني، وقرأ أيضا على الشيخة الأصيلة أم الفضل عائشة بنت القاضي علاء الدين عي الكناني العسقلاني الفوائد لأبي بكر الشافعي المعروفة بالغيلانيات، وسمع عليها أيضا بقراءة صاحبنا تقي الدين عبد الرحمن القلقشندي المعجم الصغير للطبراني، وعلى القاضي شمس الدين محمد بن محمود البالسي السنن لأبي داود، وسمعنا أيضا بقراءة تقي الدين القلقشندي المذكور على المشايخ الثلاثة زين الدين عبد الرحمن بن يوسف الطحان، وعلاء الدين علي بن الإمام عماد الدين اسماعيل بن بردس، وشهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن بن ناظر الصاحبة السنن لأبي داود بكماله في عدة مجالس، وبعض مسند أحمد على الأول، وكله على الآخرين، وكذا جامع الترمذي كاملا في عدة مجالس، والشمائل للترمذي أيضا كاملا، ومشيخة ابن البخاري، وأجازوا لنا جميعا ما يجوز لهم وعنهم روايته بشرطه، وذكر لي أنه تفقه بالشيخ سراج الدين عمر قارئ الهداية، وبشيخ الإسلام سعد الدين بن الديري.

وكان ينظم القريض باللغة التركية والعربية، ولعله أنشدني غالب نظمه من لفظه، أذكر منه أحسن ما سمعته من لفظه لنفسه في مليح يدعى شقير:

تفاح خدي شقيـــــر فيه مسكي لون زها وأزهر
قد بان منه النوى فأضحى زهري لون بخد مشعر

23- **الأمير سيف الدين تمان تمر بن عبد الله العمري نائب غزة (ت: 764 هـ/1363م)[32]:**

كان من جملة الأمراء بالديار المصرية ثم نقل إلى نيابة غزة إلى أن توفي. وكان أميرا جليلا كثير البر إلى الفقراء والصالحين وكان دينا خيرا عابدا وقبره يزار ويؤخذ من ترابه للتبرك.

24- **الأمير سيف الدين الحاجب تمر بن عبد الله الشهابي (ت: 798 هـ/1396م)[33]:**

أحد أمراء الطبلخانات وأعيان فقهاء الحنفية كان له معرفة بالفقه والأصول، وتصدر للإقراء مدة طويلة إلى أن سافر مرة فخرج عليه العرب فقاتلهم فجرح فمات من جراحه بالقاهرة. وكان شجاعا فاضلا عالما دينا خيرا.

25- **الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري نائب الشام (ت: 741 هـ/1340م)[34]:**

جلب إلى مصر وهو حدث فنشأ بها.

سمع صحيح البخاري غير مرة من ابن الشحنة وسمع كتاب الآثار للطحاوي وصحيح مسلم وسمع من عيسى المطعم، وأبي بكر بن عبد الدايم، وحدث، وقرأ عليه المقريزي ثلاثيات البخاري بالمدينة النبوية، وأمّره السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إمرة عشرة قبل توجهه إلى الكرك، وكان قد سلم إقطاعه إلى الأمير صاروجا المظفري.

26- **الأمير سيف الدين جردمر بن عبد الله أخي طاز نائب الشام (ت: 793هـ/1391م)[35]:**

كان يحضر مجالس السماع وأماكن الذكر وفيه بر وصدقة.

27- **ابن خاص بك العلامة الحسن بن خاص بك بدر الدين أحد أعيان فقهاء السادة الحنفية وأحد مقدمي المماليك السلطانية (ت: 813 هـ/1410م)[36]:**

كان جنديا بارعا عالما متفننا في الفقه والعربية والأصول، وله مشاركة في عدة علوم، وتصدر للإفتاء والتدريس عدة سنين وانتفعت به الطلبة. وكان له وجاهة عند أكابر الدولة من الأمراء وغيرهم. وكانت رسالته عندهم غير مردودة. قال المقريزي بعدما أثنى عليه: وسمعنا لقراءته صحيح البخاري ومسلم بمكة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة.

28- **الأمير الوزير صلاح الدين خليل بن عرام (ت: 783 هـ/1381م)[37]:**

كان أميرا جليلا عارفا فصيحا محبا للعلماء معتقدا للصلحاء وصنف تاريخا في عشرة أجزاء وكان يكثر في مجلسه من المذاكرة مع الفضلاء وأهل الأدب وولي شد الدواوين بالديار المصرية.

29- **الأمير الوزير غرس الدين خليل بن شاهين الشيخي أحد مقدمي الألوف بدمشق (ولد: 813 هـ/1410م)[38]:**

اجتمع بأبي المحاسن في بيته بالقاهرة سنة 854 هـ فوجد له مذاكرة بالشعر والتاريخ. وأن له عدة مصنفات في عدة علوم وأن له نظما كثيرا.

ومن كتبه: كتاب المواهب في اختلاف المذاهب في أحكام الشرع الشريف، مرتب على أبواب الفقه وهو جائز في كل مذهب. وكتاب المنيف في الإنشاء الشريف وكتاب الكوكب المنير في

أصول التعبير، وكتاب الإشارات في علم العبارات، وكتاب الدرة المضية في السيرة المرضية، وديوان شعر عدة مجلدات. وله كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك في أحوال مصر وممتلكاتها ثم اختصره في مجلد سماه: زبدة كشف الممالك.

30- **الأمير الكبير علم الدين سنجر بن عبد الله البرنلي التركي الصالحي النجمي الدواداري (628 – 699 هـ/1231-1300م)**[39]:

كان من أمراء الألوف بالديار المصرية.

ذكره الحافظ الذهبي في معجمه قال: ديّن فاضل عالم له مشاركة في الفقه والحديث، سمع الكثير، وحصّل الأصول وكتب الطباق بخط مليح، وكان الفضلاء يحضرون مجلسه، ويذاكرهم ويكرمهم. وقف مدرسة ورباطا وغير ذلك، وقل من أنجب من الترك مثله. وقد حج ست مرات، مرة منها هو ورجلان على الهجين. وكان يعرف بمكة بالستوري، لأنه أول من كسا الكعبة شرفها الله تعالى بعد الخلفاء واستعمل كسوتها وسار بها من مصر. وسمع الحديث بالحرمين، والقدس ومصر ودمشق والكرك وحلب وحمص وقوص، وخرج له معجم في أربعة عشرة جزءا، وانتقى له شيخنا ابن الظاهري، فسمع من الزكي المنذري، والرشيد العطار وابن عبد السلام وإبراهيم بن نجيب والشرف المرسي، وعبد الغني بن بنين.

وقد جمعت مدائحه في مجلدين، وقرأ القرآن على الشيخ جبريل الدلاصي وغيره.

قال القاضي كمال الدين الزملكاني: كان فارسا بطلا شجاعا مقداما، مثابرا على الجهاد، ولم يكن في الأمراء الشاميين مثله في حسن اهتمامه بأمر المسلمين، وقيامه بسد الثغور، وكان عديم الأذى والظلم، ولم يزل مقدما في الدولة متعينا لكل صالح دينا تقيا ورعا، متواضعا قريبا إلى الناس. تولى نيابة السلطنة فسار أحسن سيرة، وتولى تدبير الممالك زمنا طويلا، مرارا متعددة، وأبطل الله على يديه كثيرا من المكوس والمظالم.ثم قال: كان يحيي كثيرا من السنة ويسهر الليل وكان يلازم التردد إلى الجامع بثياب الذلة والتواضع والتخشع، يمشي وحده. ثم قال: وله المشاهد المشهورة في الجهاد، والمصابرة في الحروب وبذل نفسه في ذلك محبا للشهادة. وكانت داره أشبه بالمساجد لكثرة قيام الجماعات فيها وملازمة جميع غلمانه على الصلوات، وانتظارها قبلها مستقبلا القبلة، وكان لا ينام إلا على جلد أل في الغالب إلا من مباح، وقد أعد في مخدة تحت رأسه كفنه أبرادا سحولية مغسولة بماء زمزم وحنوطا وأجرة الغاسل وجميع ما يحتاج إليه.

قال البرزالي بعدما أثنى عليه: وشيوخه في معجمه مائتان وستون شيخا، ومن مسموعه كتاب دلائل النبوة للبيهقي بإجازة من ابن الطباخ في سنة ست وخمسين وستمائة بقراءة

الميدومي، وبعضه بقراءة الشرف بن سراقة. ثم قال: مولده سنة ثمان وعشرين وستمائة، وتوفي ليلة الجمعة ثالث رجب سنة تسع وتسعين وستمائة بحصن الأكراد، ودفن هناك بمقبرة تعرف بالمشهد.

وقال الشيخ صلاح الدين: وكان الشيخ فتح الدين به خصيصا، ينام عنده ويسامره فقال لي: كان الأمير علم الدين قد لبس بالفقيري وتجرد وجاور بمكة، وكتب الطباق بخطه. وكانت في وجهه أثر الضروب من الحروب. وكان إذا أخرج غزوة خرج طلبه وهو فيه، وإلى جانبه شخص يقرأ عليه جزءا فيه أحاديث الجهاد، وكان السلطان حسام الدين لاجين رتبه في شد عمارة جامع أحمد بن طولون، وفوض أمره إليه، فعمره وعمر وقوفه، وقرر فيه دروس الفقه والحديث والطب، وجعل من جملة ذلك وقفا يختص بالديكة التي تكون في سطح الجامع في مكان مخصوص بها، وزعم أن الديكة تعين المؤقيتين وتوقظ المؤذنين في السحر، وضمن ذلك الوقف، فلما قرأ على السلطان أعجبه ما اعتمده في ذلك فلما انتهى إلى ذكر الديكة أنكر ذلك وقال: أبطلوا هذا، لا يضحك الناس علينا.

31- **الأمير علم الدين أبو محمد سنجر بن عبد الله الدواداري الناصري الشهير بطقصبا (ت: 697 هـ/1297م)[40]:**

كان من أعيان أمراء الملك المنصور قلاوون وولده الأشرف خليل وفرسانهم.

قال ابن الزملكاني: هو أمير جليل، مشهور بالعقل الوافر والديانة، والسكون، شجاع مقدام، معروف بحسن المواقف، وكثرة الجهاد، وبطل من الأبطال، ملازما لما هو بصدده، قليل الدخول فيما لا يعنيه.

وسمع من سبط السلفي وغيره، وحدث، سمع من بدر الدين الفارقي وكان يحب طلبة العلم ويجالسهم، وتوجه إلى وقعة حموص من بلاد سيس، فأصابه جرحا في ركبته فكسر العظم، فحمل إلى حلب فمات في الطريق بالقرب من حلب في 29 رمضان.

32- **الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله الظاهري المغربي الجرطسي أحد أمراء العشرات وحاجب ثم نائب دمياط (ت: 843 هـ/1440)[41]:**

من مماليك الظاهر برقرق، كان دينا خيرا عفيفا فقيها بالنسبة إلى أبناء جنسه، يكثر من طلب العلم ويجتهد في ذلك إلى الغاية، وكان تصوره غير صحيح فهمه غير مستقيم، قل أن يجلس بمكان ولا يبحث فيه مع أحد وكان عنده نشوفة وظن بنفسه، ولهذا المقتضى سمي بالمغربي.

اشتغل بالنحو في أواخر عمره، وصار يكثر الأسئلة في العربية، وكان إذا جلس بالقصر يجلس حوله جماعة من الفضلاء من الأمراء ويبحثون معه حتى ينحرف ويستغيث.

33- الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد الله الناصري صاحب المدرسة بالصليبية (ت: 759 هـ/1358م)[42]:

أصله من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان من كبار الأمراء في الدولة الناصرية حسن، ومدبر المملكة بعد موت الأمير شيخون الأتابك، ولما مات الأمير شيخون عظم في الدولة واستطال وأخذ وأعطى وزادت حرمته وكثرت أمواله، ثم إنه لم يرض بما هو فيه وطلب غير ذلك. وبلغ الملك الناصر حسن خبره فقبض عليه وجرت فتنة سنة 759 هـ ثم حمل إلى الإسكندرية وسجن بها حتى وفاته.

كان يكتب جيدا، ويقرأ تجويدا، ويتكلم في الفقه والعربية بكلام مقبول، وكان جيد المشاركة حسن التصور.

الخاتمة

يمكن القول في الختام بأن عصر المماليك لم يكن عصر الجيش والسياسة فقط، بل كان عصر الاهتمام بالعلم أيضا ولا أدل على ذلك من نبوغ الكثير من الأمراء ذوي الأصول القوقازية والشركسية والتركية عموما في الجانب العلمي، حيث وجدنا في كتاب المنهل الصافي الذي هو بدوره لأحد أبناء الأمراء المماليك، تراجم للكثير من أمراء المماليك الذين تخصصوا في فنون العلوم النقلية والقلية وألفوا فيها الكتب، والملفت للانتباه براعتهم في اللغة العربية وآدابها نثرا وشعرا رغما كونهم من أصول تركية، إنما يدل هذا على انصهار طبقة المماليك ثقافيا في المجتمع المصري وتأثرهم باللغة العربية وعلوم الدين الإسلامي.

الهوامش:

[1]- شمس الدين السخاوي (محمد بن عبد الرحمن بن محمد ت 902هـ/1497م)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، ج3، مصر 1352، ص29. – أبو العباس أحمد القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985 ص180 – 184.

[2]- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص 182.

[3]- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد ت 1255 هـ/1834م)، **البدر الطّالع بمحاسن من بعد القرن السّابع**، ج2، مطبعة السعادة، القاهرة، 1348 هـ/1929م، ص 283-284 – ابن العماد الحنبلي، **شذرات**

الذهب في أخبار من ذهب، ج7، دار أحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ص 164 – ابن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج6، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990، ، ص 310.

[4]- السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص 9 – ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص 7-8.

[5]- سعيد عبد الفتاح عاشور، **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962، ص 142.

[6]- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص 193 – المقريزي، السلوك، ج1، ص 905 – ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص 69 – ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص 449.

[7]- ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص 164.

[8]- السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص 33-34.

[9]- السخاوي، المصدر نفسه، ج3، ص 27.

[10] - ابن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج2، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص 306-308 .

[11]- المنهل الصافي،ج2، ص ص 433-435 .

[12] - المنهل الصافي، ج2، ص ص 451-454 .

[13] - المنهل الصافي، ج2، ص 464.

[14] - المنهل الصافي ، ج2،ص ص 475-476.

[15]- ابن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج3، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص ص 9-14.

[16] - المنهل الصافي، ج3، ص ص24-26.

[17]- المنهل الصافي، ج3، ص30.

[18] - المنهل الصافي، ج3، ص ص 31-32.

[19]- المنهل الصافي، ج3، ص 71.

[20]- المنهل الصافي،ج 3، ص ص 85-88.

[21]- المنهل الصافي، ج3، ص ص 121-122.

[22] - المنهل الصافي، ج3، ص136.

[23] - المنهل الصافي، ج3، ص 143.

[24] - المنهل الصافي، ج3، ص ص 152-153.

[25] - المنهل الصافي، ج3، ص ص 172-176.

[26] - المنهل الصافي، ج3، ص 215.

[27] - المنهل الصافي، ج3، ص ص 361-363.

[28] -المنهل الصافي، ج3، ص 412.

[29] -المنهل الصافي، ج3، ص ص 477-478.

[30] - المنهل الصافي، ج3، ص ص 512-513.

[31] - ابن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج4، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986، ص ص 68-74.

[32] - المنهل الصافي، ج4، ص88.

[33] - المنهل الصافي، ج4، ص ص 102-103.

[34] - المنهل الصافي، ج4، ص ص 156-167.

[35] - المنهل الصافي، ج4، ص ص 263-264.

[36] - المنهل الصافي، ج4، ص 264.

[37] - ابن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، ج5، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988، ص263.

[38] - المنهل الصافي، ج5، ص 261.

[39] - ابن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج6، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990، ص 68 .

[40] - المنهل الصافي، ج6، ص ص 78-79 .

[41] - المنهل الصافي، ج6، ص ص 179-181.

[42] - المنهل الصافي، ج6، ص 342.